أضدَاءُ الذَّاتِ

بقلم : شروق بوعلي

بسم الله الرحمان الرحيم

المقدمة

لكل إنسان محطات صغيرة، قد تبدو عابرة في ظاهرها، لكنها تترك في داخله أثرًا لا يُمحى.
بالنسبة إليّ، كانت الكتابة هي المرآة التي عكست تلك المحطات:
فـ الحافلة كانت مساحة للتأمل وسط الزحام،
و حين يبوح الصمت كانت لحظة مواجهة بيني وبين نفسي،
أما الأوراق المبعثرة فكانت رفيقة دربي، تجمع أسراري وتشتتني في الوقت نفسه،
و الفصول... مرايا أرواحنا كانت دليلاً على أن الطبيعة ليست بعيدة عن تقلباتنا الداخلية.
حتى في لحظات التردد أو اليأس، وجدت نفسي أكتب عن اللا مستحيل، أستمد منه بصيص أمل.

ثم جاءت رحلتي بين الألم والقوة، لتكون الخيط الجامع بين كل تلك الصفحات، حيث تعلمت أن الخذلان قد يجرح، لكنّه لا يكسر، وأن الانتقام الأجمل هو إصلاح الذات وبناؤها من جديد.

هذه النصوص ليست قصصًا مكتملة، بل ومضات من الروح، ومرايا صادقة لمشاعر متقلبة وتجارب عابرة. أشاركها معكم لعلّ قارئًا يجد فيها ما يواسيه، أو يضيء له طريقًا كان يظنه مظلمًا.

الحافلة

ها هي الحافلة تُطل من أول الشارع، تبشّر بقدومها لتقلّ الناس الذين طال انتظارهم، وتنقلهم إلى بيوتهم بعد يوم طويل من دراسة أو عمل.
ركبت كعادتي، لكن هذه المرة لم تكن كسابقاتها. عيناي صارتا تلتقطان تفاصيل لم أنتبه إليها من قبل، وكأن نظرتي انقلبت إلى نافذة باحثة عن معنى ضائع بين الأوراق المبعثرة.
في المقدمة، بعض الفتيات يحيطن بالسائق، يلقين عليه ضحكاتهن كأنهن يخففن عنه عناء الطريق. وفي جانب آخر، مجموعة من النساء يتبادلن أطراف الحديث، وكأنهن يعرفن بعضهن منذ زمن، مع أن الحافلة جمعت بينهن لأول مرة.

أما الشباب، فمنهم الطالب، ومنهم العامل، ومنهم من أرهقته خيبات الحياة، فاختار الوقوف في وسط الحافلة، عيونه تلاحق الفتيات في صمت ثقيل.
لم يعجبني المشهد، فحوّلت بصري إلى طفل صغير يملأ المكان بصراخه، تحاول أمه تهدئته عبثًا. صوته كان كجرس يذكّرني بمنبهي كل صباح.
ابتسمتُ بمرارة وأنا أحاول أن أستعيد هدوئي، متجاوزة أحاديث النساء، ونظرات الذكور، وضجيج الطفل... لكن سرعان ما صعدت مجموعة من الفتيات تتعالى ضحكاتهن في المكان، حتى غمرت الحافلة كلها.
تساءلت في داخلي: لماذا هذه المرة بالذات تركّزت نظرتي

على كل هذه المواقف؟ أي سرّ تريد أوراقي المبعثرة أن تخبرني به؟
لم يطل بحثي حتى التقطت عيناي مشهدًا من خلف زجاج الحافلة: طفل صغير على رصيف المدينة، يحمل في يد بعض المناديل وفي الأخرى علكة، بائع متجوّل رغم صغر سنه. توقف فجأة أمام شاشة تعرض صورًا كرتونية وألعابًا، ليقتنص دقائق من طفولته الضائعة..
ذلك المشهد اخترقني، جعلني أتساءل: أين حقه؟ أين مدرسته؟ أين الطفولة التي سُرقت منه؟
وصلت وجهتي، نزلت من الحافلة، وفي طريقي إلى المنزل بقيت تلك الصورة ترافقني كظلٍ ثقيل. تمددت على سريري، لأكتشف أن رحلتي مع

الأوراق المبعثرة قد بدأت للتو...
إنها لا تخفي حكايات فقط، بل أحيانًا تُخفي حقوقًا، وتسلب إنسانًا طفولته أو مستقبله.
الحياة ليست وحدها المتهمة، بل الأوراق المبعثرة أيضًا شريكة في الجريمة. إنها حاجز غامض يحجب عنا فهم ما يجري من حولنا.
قد لا أعرف قصة ذلك الطفل ولا كيف انتهى به الأمر إلى بيع المناديل، لكنني أدركت أن الأوراق المبعثرة ليست مجرد حكايات ضائعة... إنها جرائم صامتة، تتواطأ مع الحياة على قسوة الإنسان.
يمكن ما رأيته و استنتجته كان خارج الحافلة الا ان الحافلة كانت السبب الاول لما عشته اليوم

حين يبوح الصمت

الساعة الثانية صباحًا، وبين جدران الغرفة الصامتة، يتناوبني الأرق كما لو أنه ضيف ثقيل لا يعرف المغادرة. نهضتُ، حملتُ ورقة وقلماً، كأنني أحمل قلبًا آخر لأُفرغ فيه ما يفيض عن احتمالي. أعددتُ قهوتي، لكن قبل أن ألمس الدفء المتصاعد من فنجانها، باغتتني تلك القطة التي أكرهها، فسقط الكأس من يدي وتناثر الزجاج على الأرض. حاولت لملمته، غير أنّ إحدى الشظايا تركت أثرها على يدي، خطًا طويلاً يشبه جرحًا من جروح الحياة.
لكنني رغم الألم لم أتوقف عن الكتابة، لأنني أعلم أنّ القلم وحده قادر أن يضمد

ما عجز البشر عن مداواته. كم تشبه هذه الحادثة ما نعيشه في صداقاتنا: وجوه نعتقدها مأوى، فإذا بها تتحول إلى أشواك تترك ندوبًا لا تزول.
كنتُ دائمًا أجد في أبي قبرًا لأسراري، غير أنّ الأسرار لا تُدفن، بل تتحوّل إلى بذور تنبت في داخلي لتحفّزني على بناء يوم جديد. أما الآن، حتى أبي لم يعد يستطيع انتشالي من دوامة الصمت.
وحدهم القلم والورق بقيا أوفياء، ارتديا رداء الطبيب النفسي، وأنصتا لي دون حكم، دون خيانة.
أنا الآن أكتب ولا أعلم إلى أين تقودني هذه الكلمات. لستُ أرغب في أن تكون مذكرات لا أتشرف أن

تُختصر حياتي في مذكرات بل هي مجرد كوابيس تسير على الورق. كوابيس طفلة عاشت في غشاوةٍ غريبة، في عالمٍ انقلبت فيه الموازين، فصار قانون الغاب سيدًا: البقاء للأقوى.
كنتُ في كل لحظة ألمس فيها حدود الانكسار، أقول لنفسي: هذا آخر نفس، هذا آخر صمود. لكنّ الحياة كانت تفاجئني دومًا بأمل جديد، بشمعة تُضاء في الظلمة، بورقة جديدة تُكتب تحت شمس يوم آخر. عندها أيقنت أنّني لا أنتمي لهذا العالم، ليس غرورًا، بل لأنني أرى نفسي مختلفة عن القطيع.
هنا فقط فهمت جبران، وفهمت الشابي، عرفت كيف عانوا من العالم والبشر.

تمنّوا مدينة فاضلة وإنسانًا كاملًا، غير أنّ الإنسان ليس برنامجًا آليًا ولا روبوتًا خاليًا من العطب. يكفيني أن أحلم بعالمي الخاص، عالم جميل أهرب إليه حين يثقلني قبحهم.
اكتشفتُ أنني حين أدركتُ اختلافي، أدركتُ مرضهم. مرضٌ لم أستطع أن أحدّد له اسمًا، لكنه يتسرب من قلوبهم إلى عقولهم، حتى يغدو جزءًا من وجودهم.
وصلتُ إلى يقين: لا شفاء لهم، ولا فائدة تُرجى منهم. وحدها الحياة هي الدواء: إمّا أن تهبك القوة لتعيش، أو تتركك لتفنى. الحياة نفسها مريضة، محمّلة بسموم البشر، وتحتاج دواءً يشفيها.

لكن أي طبيب قادر أن يكتب لها وصفة؟
أنا لست طبيبة، ولو كنتُ، لعجزتُ أن
أصف علاجًا لعلّة كهذه. لأنّ الدواء لا
يُستمد من الصيدليات ولا من الوصفات،
بل من أعماق النفس والروح التي
حملناها يوم جئنا من أرحام أمهاتنا. من
هناك يبدأ الشفاء، ولا مكان آخر.

الأوراق البعثرة

أكتب لأنني لا أستطيع التوقف.
قلمي يهرب من بين أصابعي ليخطّ كلمات لا أفهمها أحيانًا، وأوراقي سئمت منّي، لكنها مع ذلك تظل تنتظرني. تنتظر بوحًا مبعثرًا يشبه ذهني: حاضر متشظٍّ، ماضٍ أثقلني، ومستقبل يطلّ بوجهٍ غامض مخيف يجعلني أسهر بعينين شاخصتين نحو السقف، حيث الحروف ترقص، والأفكار تخاطبني.
أستيقظ أحيانًا على الأذان بعد نومٍ قصير، أتوضأ وأصلي، فأشعر بسلام يكسو قلبي. ثم أرتدي ملابسي الثقيلة، القميص الصوفي والمعطف والوشاح، تضيفهم إليّ أمي بحرصها الدائم على دفئنا أنا وأختي.

كنت أحب ذلك، حتى لو أجبرتني أحيانًا على ارتداء ما لا يعجبني، لأنني كنت أشعر بحنانها في تلك التفاصيل.
لكنها لم تكن قادرة دائمًا على الاهتمام بنا بسبب عملها الذي يأخذها باكرًا ويعيدها متأخرة. كرهت عملها حينها، لكن أبي كان يسدّ ذلك الفراغ، يرافقنا ويحتضن تفاصيل يومنا. ومع مرور الأيام، أدركت أنّ حنين أمي إلينا لا يقلّ عن حنيني إليها، فكانت تستيقظ أحيانًا قبل دوامها لنحضّر الفطور معًا. لم تدم تلك العادة طويلًا، لكن ذكراها بقيت في داخلي كورقة مبعثرة لا أستطيع فقدها.
مع أبي كنت أشعر بالأمان.

أقاسمه تفاصيل يومي، ويقابلني بابتسامة تزيل تعب المدرسة. كان حضوره تعويضًا عن غياب أمي، ودفئًا يملأ البيت. لذلك، حين رأيت الحزن يسكن وجهها كلما صارحتها بلهفتي إليها، أدركت أن أوراقها هي الأخرى مبعثرة، وأننا نتشارك نفس الحنين.

خرجت إلى معهدي مثقلة بالأسئلة التي لا جواب لها. أوراقي مبعثرة في داخلي، لكنني أخفيها بابتسامة، كأن الدراسة مهربي المؤقت. حتى الرياضيات – وأنا في شعبة الآداب – لم أعد أنظر إليها كقوانين جامدة، بل كإبداع للعقل البشري يستحق الاحترام. لا أحصل على نتائج عالية،

لكنني أيقنت أن السبب سيظهر يومًا بين أوراقي المبعثرة.
وجدت أوراقًا أخرى مبعثرة في علاقتي مع جدي وجدتي. لم أفهم يومًا سبب كرههما لأبي، ولا الحقد الذي يسكنهما نحوه. رأيت جدي يضربه ويستفزه، فاشتعلت غيرتي ودافعت عن أبي بالكلمات كسلاح. كانت حربًا قصيرة، انتهت سريعًا بمنبه سخيف أيقظني من حلم، أو ربما من ذكرى حقيقية مبعثرة لا أعلم إن كنت عشتها فعلًا
أحلامي ليست مجرد صور عابرة.
أحيانًا أشعر أنني عشتها فعلًا
وبقيت متناثرة بين أوراقي.
المستقبل عندي ورق مبعثر أخشى قراءته. التفكير فيه يرهقني،

كأنني أحمّل نفسي ذنبًا لم ترتكبه بعد. لذلك قررت أن أنظّم أوراقي بالحاضر فقط، لا أن أفتش عن الغد المخفي الذي اختص الله وحده بعلمه.
وصل بي التفكير حتى إلى الموت. كنت أخافه خوفًا مبالغًا فيه، حتى صار هاجسًا يهددني بالعزلة. ثم فهمت: الموت حتمية، حياة أخرى بإذن الله، والإنسان لم يُخلق عبثًا.
العودة إلى أوراقي المبعثرة
ساعدتني على تقبّل هذه الحقيقة، وعلى تهذيب خوفي ليصبح إيمانًا وتسليمًا.
و خير دليل اعتمدته "إعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا و أعمل لأخرتك كأنك تموت غدا"
بدأت ثورتي الداخلية.

اكتشفت أن التغيير يبدأ من تفاصيل بسيطة، مثل "الصحن الأخضر" الذي نصحتني به طبيبة التغذية. كان رمزًا لثورة صحية وروحية، خطوة أولى نجحت فيها وغيرت معها نمط حياتي وفكري.
ومن هناك، بدأت أرتّب أوراقي واحدة تلو الأخرى. لم أتخلَّ عنها، بل وضعتها في أرشيف لأعود إليها عند الحاجة. الأوراق المبعثرة لم تعد عبئًا فقط، بل صارت بوصلة
الأوراق المبعثرة ليست مجرد كلمات على ورق، إنها نحن: ذكرياتنا، مشاعرنا، علاقاتنا، وما نخفيه وما نظهره. هي مرآة نرى فيها ضعفنا وقوتنا، ماضينا وحاضرنا.

المهم أن لا نسمح لها أن تملكنا، بل نجعلها ملكًا لنا، نستخرج منها الدروس ونصنع بها طريقًا نحو المستقبل.
هذه كانت حكايتي مع أوراقي المبعثرة... فماذا عنك أيها القارئ؟ هل فكرت يومًا أن تفتّش في أوراقك الخاصة؟

الفصول ... مرايا ارواحنا

الفصول ليست مجرد تقلبات طبيعية، بل هي انعكاس لطريقة عيش البشر أحببنا أم كرهنا، فإن نفوسنا و طريقو عيشنا موصولة بغير انقطاع بفصول السنة، وكأن فرحتنا وابتسامتنا، وحتى ملابسنا، ليست من اختيارنا الحر، بل يفرضها علينا الطقس فرضًا: القميص الصوفي في الشتاء، والتنورة أو الشورت في الصيف.
حتى حين يحاول الإنسان التجبّر على الطقس، لا يستطيع أن يعيش خارجه؛ فطعامنا، نومنا، وصحتنا... كلها مرتبطة به. بل إن سعادتنا نفسها ترتبط بإيقاعه؛ فالصيف، مثلًا، يذكّرنا بالعطل، باللقاءات المنتظرة

مع أحبتنا العائدين من الغربة، بالفرح والاحتفالات. أما الشتاء، فله طقوسه الخاصة؛ فمن الناس من يحوله موسم برد إلى موسم دفء داخلي، باحتفالات كـ"بابا نوال"، أو بما يحمله من طقوس الأديان. هكذا يولد للحياة معنى مختلف في برد الشتاء.

الكون معقد عند التأمل فيه، لكن الإنسان أكثر تعقيدًا؛ ففي لحظة، نشعر بذكائه الخارق وحريته المطلقة، وفي اللحظة ذاتها نكتشف أنه مكبل داخل إطار بلوري، لا يستطيع تجاوزه مهما حاول. وحتى إن صعد عاليًا، لا بد أن يصطدم بذلك الإطار ويعود أدراجه. وكأن قدراته، وعقله، وذكاءه كلها محدودة

بما رسمه الله له.
فالإنسان، مهما تطور وارتقى، يبقى كروبوتٍ مبرمج بقدرات لا يمكن أن تفوق قدرة خالقه. يتعامل مع الطبيعة: يطورها أحيانًا، يتركها أحيانًا، أو يتأقلم معها حين يعجز عن تغييرها.

ومن بين كل ما لا يمكن تغييره، تبقى الفصول شاهدة على عجز الإنسان عن السيطرة الكاملة؛ قد يهاجر بحثًا عن مناخ آخر، لكنه لن يستطيع أبدًا تبديل دورة الفصول ذاتها.

لا شئ مستحيل

"سأصير... وسأكون... انتظرني يا حلم،
فلقاؤنا في المستقبل قدرٌ لا مفرّ منه،
وسأمسك بك مهما طال الطريق."

منذ أن نطقتُ بهذه الكلمات، ومنذ أن
صدّقتُها وآمنت بها... تغيّر مسار حياتي.
كانت تلك الشرارة الأولى، بداية الحكاية،
أما النهاية... فلن أرويها، لأنكم تعرفونها
جيدًا، فالنهاية يكتبها كل من يصرّ على
الحلم.

طفلة صغيرة، يديها ترتجفان لكنها
تمسك بالحياة بكل ما أوتيت من قوّة.
آمنت أنّ المستحيل وهمٌ يُزرع في
العقول، وأنّ أقسى العوائق ليست في
الطريق، بل في الاستسلام. مشت
بخطوات مرتجفة،

تعثّرت في أحجار الواقع، بكت حين سقطت، نزفت من جروحها، لكن دموعها كانت ماءً يروي صلابتها. رفعت رأسها، جمعت بقايا قوتها، ونهضت من جديد.

شيئًا فشيئًا، صعدت درجات حلمها، وكل درجة كانت أثقل من التي قبلها، لكنها كانت تقودها نحو نور بعيد يلمع في الأفق. وحين وصلت إلى عتبة ذلك النور، لم تكن وحدها... فقد امتدت إليها أيادٍ صادقة، أمسكت بها، شدّت على يدها، وأعطتها شجاعة إضافية لتكمل الطريق.

كان الطريق طويلًا، مليئًا بالأشواك، لكنها لم تعد تخاف الألم. صارت جراحها وسامًا، وصارت دموعها حبرًا يكتب فصول قوتها.

حتى إذا بلغت الغاية، شعرت أنّها لا تحمل حلمًا فحسب... بل أصبحت هي الحلم.

ارتدت فستان الفخر، واحتضنت نجاحها كما تحتضن الأم وليدها. عندها فقط، أدركت أنّ ما كان يومًا بعيدًا... صار بين يديها.

فلنأخذ منها العبرة... ولنمضِ، نحن أيضًا، بخطواتنا مهما كانت مثقلة.
فالأحلام لا تُصبر طويلًا، لكنها تنحني برفق أمام من يجرؤ على ملاحقتها حتى النهاية.

رحلة بين الألم و القوة

أحيانًا يكون القلم والورق... أو الكتابة عمومًا، وسيلة للتفريغ والتخلص من المشاعر السلبية. طريقة تشبه البوح للأم، أو الحديث مع صديق مقرّب، أو حتى الانكسار فوق سجادة الصلاة، أو ذرف الدموع على وسادة صامتة. لكلٍّ منّا وسيلته، وأنا اخترت الكتابة.

لكن، وسط الكلمات، أحيانًا أتجاوز مشكلتي المبعثرة، لأقف وجهًا لوجه مع سلبيات الموقف، وأضع يدي على مواضع الألم التي حملتها. ليست هذه قصصًا بقدر ما هي عِبَر وتجارب، ربما تبدو بسيطة، وربما يراها البعض مملة، لكنني أؤمن أنّها تستحق أن تُذكر...

لأنّها استنتاجات من الحياة.
الحياة تعطينا مواقف لم نتوقعها، من أقرب الناس إلينا، ممن منحناهم ثقتنا.
وهنا يتجلى خبثها وقوانين لعبتها.
يحدث ما لا يخطر بالبال، فنجد أنفسنا في مواجهة الخذلان، والدموع، والوحدة، ولوم الذات. لكن... لا بد أن نتذكر: الحياة لا تتوقف.
إنها قطار يمضي، علينا أن نلحق به، وألّا ندعه يفوتنا. أن نلوّح بابتسامة ولو كانت مزيفة لكل من تركنا، كجواب أنيق، وكأننا نقول: "رحلتُم... لكنني لم أنكسر."
الردّ الحقيقي على الخيانة أو الخذلان ليس بالبكاء، ولا بالانتقام المسموم... بل بالنهضة.

أن نترك الوجع خلفنا، أن نركض رغم جراحنا، أن نسقط وننهض، أن نضمد قلوبنا بأيدينا، إلى أن يصبحوا مجرّد ماضٍ لا نتذكّره.
هنا فقط نُدرك أنّ أجمل انتقام هو إصلاح أنفسنا وتطويرها.

الحزن عند الفراق قد يفتك بالروح، لكنّ القوة تكمن في أن نُحوّله إلى درس، ونبني منه ذاتًا أصلب، وأجمل، وأبهى.

و هكذا كنت قد شاركتكم كلماتي و من شروق بوعلى اوصلكم اجمل تحياتي 🤍

تمت بحمد الله